الباب السابع

المرأة طبيبة، ممرضة، ناجحة

الفصل الأول

مدىٰ اهتمام الإسلام بالطب

أمر رسول الله ﷺ الناس بأن يهتموا بالطب والتمريض ، وأن يبحثوا عن كل داء ويخترعوا له الدواء المناسب ، فقال عليه الصلاة والسلام : « تداووا عباد الله ، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء ، غير واحد . قيل : يا رسول الله ، وما هو ؟ قال : الهرم » رواه البخاري والترمذي وابن ماجة وغيرهم .

وانطلق المسلمون يحللون آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ ، والتي تتحدث عن بعض جوانب الطب ، وذلك كقوله تعالىٰ وهو يحدثنا عن العلاج النفساني لكثيرٍ من الأمراض الجسمانية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] .

ومثل قوله أيضاً : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] .

ومثل قوله سبحانه :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

وهكذا بيّن القرآن الكريم أن كل من اتبع القرآن والسنة بأنه سيكون سعيداً مرتاح البال ، مطمئناً ، غير معرَّض للاضطرابات النفسية و . . . فقال تعالىٰ :

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه : ١٢٣] .

وقد برع المسلمون بهذا العلم ـ أي علم الطب ـ وسبقوا الأوربيين كثيراً ، فظهر (جابر بن حيان) الذي أكد أن تعادل المواد الكيماوية في جسم الإنسان ، هو الذي يعتبر حصانة من الأمراض ، ومتىٰ حصل هذا التعادل ، نجد أن الإنسان تتكون عنده مناعة قوية ضد الأمراض الخطيرة مثل البرص أو الجذام . . .

وبرز (عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر والذي ولد في الأندلس عام ٤٨٦هـ) في مجال معالجة مرض السرطان في المعدة والبلعوم والمري . . . !!

ويعتبر المسلمون أول من عرف بعض الأمراض التي تنتقل بالعدوىٰ ، مثل مرض الجدري والكوليرا والطاعون ، كما أنهم أول من وضع الامتحانات الطبية للأطباء ، ومنحهم شهادة تحت إشراف لجنة متخصصة تعينها الحكومة ، وهم أول من عيَّن مستشفيات متخصصة لبعض الأمراض ، وكذلك فقد عينوا خبراء متميزين كل في تخصصه ! ![1] .

---

(١) انظر ما قاله ابن خلدون : صناعة التوليد صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن أمه ، وهي مختصة بالنساء في غالب الأمر لما أنهن الظاهرات بعضهن علىٰ عورات بعض وتسمىٰ القائمة علىٰ ذلك منهن القابلة ! !

وانظر إلىٰ كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف للطبيب الجراح الزهراوي ت(٤٠٤) كيف أفرد فصلاً كاملاً هو ـ الفصل الرابع والسبعون ـ سماه : تعليم القوابل كيف يعالجن الأجنة إذا خرجوا علىٰ غير الشكل الطبيعي . . . ! ! .

ويكفي دليلاً واضحاً علىٰ تقدم المسلمين في هذا الميدان ، اعترافات علماء أوروبة المعاصرين ، أمثال (رونلد كامبل) الذي قال : لقد بقيت جامعات أوروبة تستند تماماً علىٰ إسهامات علماء العرب في الطب ، بل إن مقراراتهم في كليات الطب بقيت تستعمل القانون لابن سينا ، والحاوي للرازي ، وغيرهما حتىٰ نهاية القرن السادس عشر الميلادي ! !

ومن عمالقة المسلمين في الطب : الرازي ، وعلي بن العباس ، وابن الجزار (ت ٣٩٩هـ) والذي ألف في الطب أكثر من عشرين مجلداً ، وعلي بن عيسىٰ الكحال (ت ٤٣٠هـ) وهو أول من استعمل التخدير في عمليات العيون ، وله مؤلفات منها كتاب في تشريح العين ، وكتاب تذكرة الكحالية ، وغيرهما . . . ، وابن سينا ، والزهراوي ، وآل زهر ، وعبد اللطيف البغدادي ، وابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) واشتهر في طب العيون ، وألف كتاباً قيِّماً أسماه : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، وابن القف (ت ٦٨٥هـ) ، وابن النفيس . . . وغيرهم .

* * *

الفصل الثاني

ما هو دور المرأة في هذا المجال؟!

لكن ما هو دور المرأة المسلمة في هذا المجال ؟!

برز من عمالقة الطب والتمريض بين النساء : نسيبة بنت الحارث الأنصارية ، أم عطية الجراحة الماهرة ، يقول الدكتور علي عبد الله الدفاع عنها : (كانت أم عطية الأنصارية مشهورة كطبيبة في الجاهلية ، ولكنها دخلت في الإسلام ، فغزت مع رسول الله ﷺ لتداوي الجرحىٰ ونالت شهرة عظيمة في الجاهلية والإسلام بالجراحة ، فكانت جراحة ماهرة للغاية)[1] .

وقد نقلنا في باب شجاعة المرأة أنها ـ أي نسيبة بنت الحارث ـ كانت تغزو مع سيدنا رسول الله ﷺ لتداوي الجرحىٰ وتطببهم ، وقد غزت معه سبع غزوات . . .

ويقول الدكتور كمال السامرائي عنها : وكان ختان الصبيان مألوفاً قبل الإسلام ، ويروىٰ أن الصحابية الجليلة أم عطية الأنصارية ظلت تمارس هذه العملية بعلم من النبي ﷺ ، وأنه قدم لها النصح في هذا الموضوع[2] .

---

(١) أعلام العرب والمسلمين في الطب : ٢٤ـ٢٥ .

(٢) الأمراض النسوية في التاريخ القديم وأخبارها في العراق الحديث : ٣٣ .

وقال عنها عمر رضا كحالة : نسيبة بنت الحارث الأنصارية ، ويقال لها نسيبة بنت كعب وهي أم عطية الأنصارية ، من فواضل نساء الصحابة ، كانت تغزو كثيراً مع رسول الله ﷺ فتمرض المرضىٰ ، وتداوي الجرحىٰ ، وشهدت غسل ابنة النبي ﷺ ، وكان جماعة من الصحابة وعلماء التابعين بالبصرة يأخذون عنها غسل الميت ، وروت عن النبي ﷺ وعن عمر رضي الله عنه أربعين حديثاً اتفقا علىٰ ستة ، وللبخاري حديث ، ومسلم آخر ، وروىٰ عنها : أنس بن مالك ، ومحمد بن سيرين ، وعبد الملك بن عمير ، وحفصة بنت سيرين ، وإسماعيل بن عبد الرحمن بن عطية ، وأم شراحبيل ، وعلي بن الأحمر[1] .

❊ وتلكم (الشفاء بنت عبد الله القرشية) ، ولدت بالجاهلية ، وروت اثني عشر حديثاً ، وكانت من فضيلات النساء ، ذات عقل وفضل ورأي سديد ، وقد أسلمت قبل الهجرة ، ثم هاجرت لتكون من المهاجرات الأوائل ، وكانت تقرأ وتعرف الكتابة وهي في العصر الجاهلي ، وكانت تشتغل بالرُّقىٰ ، وعندما أسلمت طلب منها رسول الله ﷺ أن تعلِّم حفصة بنت عمر بن الخطاب التي تزوجها النبي بعد عائشة ، فعلّمت حفصة أم المؤمنين الكتابة ورقية النمل ـ والنملة : قروح تخرج في الجنب ـ وكانت وفاتها عام (٢٠هـ)[2] .

ويعلّق الدكتور عبد الله السعيد علىٰ ذلك بقوله :

لقد سمح رسول الله ﷺ للشفاء بنت عبد الله بمزاولة مهنة مداواة النملة ، وهي القروح بعد أن مارستها وعرضت عليه طريقة معالجتها

---

(١) أعلام النساء : ٥/ ١٧١ .

(٢) للتوسع عن ترجمة حياتها يراجع الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ٤/ ٣٤١ ، والأعلام للزركلي : ٢٤٦ ، وأعلام النساء : ٢/ ٣٠٠ .

للقروح ، فقد سمّت باسم الله تعالىٰ الذي لا يضر ، ورجته بأن يزيل البأس ويكشف المرض ، وبعد ذلك استعملت الدواء الذي فيه شفاء القروح ، ألا وهو أن أخذت عوداً من الكركم ـ وهو نبات معمر اسمه العلمي كركومالونجا وله أزهار صفراء وأصوله تستعمل تابلاً وصبغاً والكركم فيه زيوت عطرية طيارة ويستعمل مطهراً للاستعمال الخارجي ـ ثم دلكت عود الكركم علىٰ حجر بخلِّ خمر مصفىٰ ، فعلق علىٰ العود الدواء وطلته علىٰ القرحة ! !(١) .

وهذا ما أثبته العلم الحديث وتبنّاه ، بحيث أن حامض الخليك يوجد في العصير المتخمر للفواكه ، إضافة إلىٰ كحول أثيلي ، وهذه الكحول توجد بمعدل مائة غرام في الليتر الواحد من عصير العنب المتخمر ، وكذلك يحتوي علىٰ (٨٥٠) غراماً ماء و(٤) غرامات ترترات حامض البوتاس و(٨) غرامات غليسرين وسكر ، وديكسترين حوالي (١٦) غراماً ، ومواد آزوتية ، ومواد دهنية ، ومواد قابضة ، وعفص ، وحامض الخليك ، وحامض البروبيونيك ، وأملاح معدنية من فوسفات وسلفات وكلوريد(٢) .

فمن الذي علّم هذه الطبيبة المسلمة أن في الكركم هذه المنافع كلها ؟! ثم من أي الجامعات تخرّجت ؟! وفي أيّ المستشفيات تخصصت ؟!

* وتلكم الطبيبة زينب من بني أود :

والتي اشتهر صيتها ، حيث تخصصت بمداواة آلام العين

---

(١) الطب ورائداته المسلمات : ٨٢ـ٨٣ .

(٢) من كتاب (غذاؤك حياتك) للدكتور محمد علي الحاج : ١٤١ .

والجراحات ، وعاشت في أواخر العهد الأموي ، قال عنها أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني :

أخبرنا محمد بن خلف المرزبان قال : حدثني حماد بن إسحاق عن أبيه عن كناسة عن أبيه عن جده قال : أتيت امرأة من بني أود لتكحلني من رمد كان قد أصابني فكحلتني ، ثم قالت : اضطجع قليلاً حتىٰ يدور الدواء في عينك ، فاضطجعت ثم تمثلت قول الشاعر :

أمخترمي ريب المنون ولم أزر طبيب بني أود علىٰ النأي زينبا

فضحكت ، ثم قالت : أتدري فيمن قيل هذا الشعر ؟

قلت : لا!

قالت : فيَّ والله ، وأنا زينب التي عناها ، وأنا طبيبة بني أود ، أفتدري من الشاعر ؟

قلت : لا!

قالت : عمك أبو سماك الأسدي .

* وتلكم الطبيبة الشاعرة (أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجاني) نشأت في حجر أبيها والذي درسها الطب ففهمت أغراضه ، وعلمت أسبابه وأعراضه ، وهي من أهالي (لَوْشة ـ قريبة من قرطبة ـ) بالأندلس ، وكانت تجوِّد القرآن ، وتشارك في فنون الطب ، وتنظم الشعر . . .[1] .

* وأما طبيبات بني زهر الأندلسيات :

ـ تلكم العائلة عائلة بني (زهر) الشريفة العريقة ، والتي اشتهرت

---

(١) الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، تأليف : مجوعة من الأطباء والكتاب المعاصرين ، بإشراف الدكتور محمد كامل حسين ص ٢٣٥ .

بعلوم الطب ، وتفقه أبناؤها أيضاً بالأدب والفقه واللغة والحديث ـ وبرز من طبيباتها شقيقة الحفيد أبي بكر بن زهر ، الطبيب المشهور الملقب بالحفيد ، وكذلك ابنة شقيقته تلك ، وابنته التي يدعوها البعض بالحفيدة بنت الحفيد وابنتها ، وجميعهن كن ماهرات في صناعة الطب والمداواة ، ولهن خبرات ممتازة فيما يتعلق بالأمراض النسوية والولادة ، وعاشت هذه الأسرة في إشبيلية بالأندلس وذلك في الفترة الواقعة بين القرن (١١) و(١٣) الميلادي .

وفي ذلك يقول أنور الرفاعي : إن ابنة الحفيد صارت من أشهر الأطباء في عصرها ، وكانت مولدة باهرة بجانب قدرتها علىٰ العلاج العام لسائر أمراض النساء ، كما خلفتها ابنتها التي امتهنت الطب ، ولذا فقد ذاع صيتها بالولادة وعلاج بعض الأمراض المستعصية[١] .

وتحدث ابن أبي أصيبعة عن هذه العائلة فقال : وكانت مع الحفيد أيضاً بنت أخته ، وكانت أخته وبنتها هذه عالمتين بصناعة الطب والمداواة ، ولهما خبرة جيدة بما يتعلق بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان إلىٰ نساء المنصور ، ولا يقبل ـ تتولىٰ قبالة نساء أهله أي توليدهن ـ للمنصور وأهله ولداً إلا أخت الحفيد وابنتها لما توفيت أمها[٢] .

* وأما الطبيبة بنت الطبيب :

هي ابنة رئيس الأطباء بدار الشفاء المنصوري في القاهرة ، ذلكم الطبيب الشهير أحمد بن سراج الدين الملقب بشهاب الدين (ت ١٠٣٦هـ) . لم يخلف إلا بنتاً وبعد وفاته تولت مكانه مشيخة الطب ، وصار الناس يشيرون إليها بالبنان . . . !

---

(١) الإسلام في حضارته ونظمه : ٦٠٣ .

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ٥٢٤ .

* بعد كل هذا : لن ننسىٰ ما كانت تقوم به السيدة رفيدة ، وأم سنان ، وكعيبة بنت سعد الأسلمية ، وأمينة بنت قيس الغفارية ، والشفاء ، في مجال المداواة والطب والجراحة . . . وغيرهن كثيرات . . .

كل ذلك لنستدل علىٰ أن المرأة سارت عبر التاريخ الإسلامي جنباً إلىٰ جنب مع الرجل ، لم تتخلف عنه ، بل كان له السبق عليها في بعض الجوانب ، وكانت لها السبق عليه في البعض الآخر[1] .

* * *

(١) أهم مصادر هذا الباب كتاب الدكتور علي عبد الله الدفاع (أعلام العرب والمسلمين في الطب) وكتاب الدكتور عبد الله السعيد (الطب ورائداته المسلمات) .